المحاضرة الخامسة: نشأة الرواية

1-الرواية ونشأتها في الآداب الأوروبيّة

الرواية تشكيل للحياة في بناء عضوي يتفق وروح الحياة ذاتها، ويعتمد هذا التشكيل على الأحداث التي تتشكل داخل إطار وجهة نظر الروائي، وذلك من خلال شخصيات متفاعلة مع الأحداث والوسط الذي تدور فيه هذه الأحداث، على نحو يجسد في النهاية صراعاً دراماياً داخليا متفاعلا.

رواية الأحداث في البداية، ظهرت بالأشكال القصصية المحددة في الأحداث والشمول والتصوير والزمن وفي الموضوعات الخيالية والوهمية، ثم برزت بشكل القصص الطويلة بصفة غير محددة في الشمول والأحداث والقالب ...، وكانت موضوعاتها على أساس أمور غيبيّة ووهميّة لإرضاء قرائها ثم تميل إلى الحديث عن وقائع الحياة العاديّة، فصارت تعالج الواقع الإنساني والنفسي والاجتماعي.

كانت الرواية من الفنون الأدبية التي نشأت في الغرب مع نمو الطبقة الوسطى، وقد أشار بهذا الموضوع أكثر الأدباء في كتبهم، وكان النظام الإقطاعي الذي يسيطر على المجتمع الأوروبي قبل عصر النهضة يرسم الخطوط الأولية للفنون الأدبية آنذاك، وإنّ هدف هؤلاء الإقطاعيين، ينحصر أولاً وقبل كل شيء في الاحتفاظ بأرضهم وتوريثها لأولادهم بعد وفاتهم، فقد كان لصالحهم تجميد الأوضاع الاجتماعية وتثبيتها، وكان من الطبيعي ألا يهتموا بالتجربة العلميّة وانتشار التعليم.

وموضوع الأدب الذي يناسب بهذه الطبقة الوحيدة المسيطرة على الأوضاع الأدبيّة والمعنويّة يرتكز على الهروب من الواقع ويعتمد على الإيهام والتخيل وتقوم العلاقات فيه على المصادفة والسحر والقدر ويتضاءل فيه دور العمل الإنساني أمام الدور الذي يقوم به الجن والشياطين والسحرة ... وكانت الرومانسية" Romance" أو الرواية الخياليّة هي الفن الروائي السائد والمسيطر الذي يعبر عن طبيعة المجتمع الإقطاعي، ومزاجه وأقرب الفنون للرواية العربيّة التي تشبه هذا الفن في البناء الروائي هو السيرة الشعبيّة.

وبعد ذلك وفي القرن السادس عشر والسابع عشر ظهر في الأدب "الإسباني" جنس جديد من القصص... وهذا الجنس الجديد من القصص هو ما نستطيع أن نسميه، قصص الشطار وهي قصص العادات والتقاليد للطبقات الدنيا في المجتمع"Picaresca" وفيها مخاطرات يقصها المؤلف على لسانه كأنّها حديث له... وهو يحكم على المجتمع من خلال نفسه حكماً تظهر فيه الإثارة والانطواء على النفس.

ثم تدهور المجتمع الإقطاعي بسبب تخلف الزراعة، واستمرار الحروب لسنوات طويلة ساعد على يقظة الأفراد في المجتمع الجديد وثورتهم على الحياة المظلمة التي يعيشونها، وأيضا ساعد على ظهور عصابات من المنحطين أخذ وجودهم يلفت الأنظار ...، وكانت إسبانيا بحكم اتصالها الوثيق بالعرب واطلاعها على قصص نماذج بشرية تشبه هؤلاء المنحطين وأرباب الكدية من الأدباء، أدباء المقامات وهم يقومون بأنواع من الكدية وسبل النصب ... الخ في سبيل لقمة العيش–وهي البيئة التي احتضنت هذا الفن الجديد.

وهذا الشكل الجديد يعد البذرة الأولى للرواية الفنية ...، فانه يعد أول رد فعل مباشر ضد الرومانسية وما نكاد نصل إلى القرن الثامن عشر حتى نرى الطبقة الوسطى وقد صارت صاحب النفوذ الأكبر في المجتمع ... وصاحب ظهور هذه الطبقة زيادة عدد جماهير القراء بصورة ملحوظة ...، واشتد إقبال الجماهير على الفن الروائي، وإن كان أغلب قراء الرواية من النساء ...، فكان ظهور هذه الطبقة الجديدة ...، يمثل انقلاباً في القوة التي يستمد منها الروائي التأييد.

وأخيراً فإن الرواية تختلف عند الطبقة الإقطاعيّة الرومانسيّة عن الطبقة الوسطى الواقعيّة، لاختلاف تفكيرهم وحاجاتهم وأهدافهم في الحياة، وابتعدت الرواية عن حالتها الوهميّة والخرافيّة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى قمتها في العصر الحديث والمعاصر لتظهر بشكل الرواية الفنيّة بموضوعاتها المتنوعة.

تطور القصة في الآداب الأوروبيّة

معنى القصة في العصر الحديث عبارة عن القصة الواقعيّة التي تعني بالتحليل النفسي للأشخاص وهذه القصة الحديثة، أوسع ميادين الأدب العالمي وأخرطها وأعمقها أثراً في الوعي الإنساني والقومي ،ولكن القصة في نشأتها الطويلة، كانت تختلط فيها الحقائق الإنسانيّة بالأمور الغيبية، وكانت تجمع في الخيال فتبعد كثيراً عن الواقع الإنسانية وقضاياه، كما كان لا يفرق فيما بين ما هو ممكن وما هو مستحيل وظهرت بشائر القصة في الادب اليوناني في أشعار الرعاة وفي حكايات الرحالة عن الإسكندر الأكبر، ثم النثر القصصي آخر اجناس ذلك الأدب ظهوراً، ولكنّه ظل مع ذلك مختلطاً بالمعاني والمخاطرات الغيبيّة والسحر والأمور الخارقة.

هكذا كان شأن القصص في الآداب الأوروبية منذ عصر النهضة، تعتمد على الأساطير والجنيّات وخوارق العادات. ولكن بعد عصر النهضة ظهرت القصة الواقعيّة التي تعني بالتحليل النفسي.

الرواية ونشأتها في الأدب العربي

إنّ نشأة الرواية في الأدب العربي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة خاصة مصر، وبعد العصر العباسي وبداية الحكومة العثمانيّة وبعده في القرون الثلاثة التي سيطر عليها الحكم التركي على مصر أغلقت المدارس بل هدمت وانتهت ...وتعطلت الحركة الأدبية، بل تحجرت وانحرفت اللغة، بل فسدت ... ومن هنا أصبح الأدب في حالة من السقم تقارب الموت فكانت تمثله نماذج نثرية وشعرية، ليس وراءه أي صدق إحساس أو فنية تعبير ... وقد كان أغلب النتائج الأدبي لتلك الفترة تدور حول المدائح النبوية والأمور الإخوانية والمراثي الباردة والمواعظ المباشرة.

فترة اليقظة في العصر الحديث

بعد هذا الركود جاءت فترة اليقظة، الفترة التي تبدأ بتلك السنوات التي شهدت خروج البلاد من ظلمات العصر التركي، لتفتحّ عيونها على نور الحضارة الحديثة ولتأخذ طريقها في موكب المدنية المتقدمة ...، ومن الممكن تحديد تلك البداية بسنوات الحملة الفرنسية ومن سنة، (1798 إلى 1801م)، أي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر.

يلخص نتيجة هذه الحملة أولاً: تعرّف المصريين على الحضارة المدنية الغربية على حد ما،

وثانياً: تكوين إحساس بالشعور القومي أمام المحتلين، وبعد خروج الفرنسيين عن مصر، انتخب الشعب "محمّد علي" للحكم في مصر، قد استقدم محمّد علي أول الأمر الأساتذة الأجانب للتدريس في المدارس المختلفة ونظراً لعدم معرفة هؤلاء بلغة البلاد ومعرفة التلاميذ بلغتهم، فقد استعان بالمترجمين من السوريين والمغاربة وغير هم.

ثم أرسل محمّد علي البعثات إلى أوروبا، ليقوم أبناؤها فيما بعد بمطالب الجيش، وللتدريس في تلك المدارس ... وقد تعددت البعثات وتنوعت... وهكذا كان أول لقاء عملي بين المصريين والثقافة الغربيّة في العصر الحديث ...فقد عاد هؤلاء المبعوثون بعلم جديد وعقليّة جديدة إلى بلادهم ... وترجموا أو ألّفوا وخططوا بهذا ووضعوا أساس الثقافيّة الأدبيّة الحديثّة.

لقد كان النثر في هذه الفترة يعبر عن موضوعات ساذجة ويتقوقع في الرسائل والمقامات ونحوها من الأنواع التقليديّة ...على أنّ بعض النثر قد خطا خطوة أبعد من تلك الأغراض الساذجة ... وأصبح يحمل زاداً فكرياً حيناً وتجارب إنسانيةً حيناً آخر ...، وكان باكورة ذلك كتاب "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" لرفاعة الطهطاوي ...تحدث فيه رفاعة عن رحلته إلى باريس ...، ويعتبر البذرة الأولى للرواية التعليميّة في الأدب الحديث، وكان طبيعياً أن يأخذ كتاب "رفاعة الطهطاوي"، "تلخيص

الإبريز" شكل رحلة كان فيها أكثر تعليمية ومباشرة من كتب الرحالة العرب القدامى، ورغم أنّ الكتاب قد جاء مزيجاً من خصائص كتب الرحلات والكتب العلميّة... مع خلو تام من كل عنصر روائي.
ثم بعد الاتصال بأوروبا والتأثر بآدابها اتّجه الأدباء، إلى القصص الغربية وحاولوا أن يترجموها وكان رفاعة الطهطاوي هو الرائد لهذه الحركة، فترجم "مغامرات تيلماك"،" لفنلون" وسماها "مواقع الأفلاك في وقائع تيلماك"...، فانّه نقل القصة إلى أسلوب السجع والبديع، المعروف في المقامات، يقول "رفاعة الطهطاوي" في مقدمة تيلماك: إنّه مشتمل على الحكايات في ممالك أوروبا وغيرها وعليه مدار التعليم في المكاتب والمدارس.
وتعد "وقائع تيلماك" أول مظهر من مظاهر النشاط الروائي في مصر في القرن التاسع عشر والهدف التعليمي واضح من مقدمته التي كتبها رفاعة على الرواية المترجمة، وسماها ديباجة الكتاب ... وواضح أنّ رفاعة ترجم روايته لهدفين، الهدف الأول، تقديم نصائح للملوك والحكام والهدف الثاني، تقديم مواعظ لتحسين سلوك عامة الناس.
ثم قدّم "فرح أنطون" قصة في نفس الشكل كان مجالها المشاكل الاجتماعية، واختار "علي مبارك " مجال الرحلة أيضاً لجهوده التعليمية في كتاب، "علم الدين" وكتابه أكثر جفافاً عن كتب الرحالة العرب القدامى وإن كان يتميز هو وفرح أنطون بأنّ رحلة عند كل منهما تعليميّة، كانت رحلة متخيّلة ... وإن كان ذلك لا يميزها عن قصة "حي بن يقطان"، التي كانت أحداثها متخيّلة أيضاً.
ولم يكن تعليم العلوم هو القصد الوحيد لعلي مبارك من كتابه ولكنه حاول المقارنة بين بعض العادات الشرقيّة والغربيّة، ولذلك كان علي مبارك ينظر في كتابه إلى طلبة في المدارس المدنيّة الأخرى إلى مشايخ الأزهر، الذين رفضوا محاولاته لإدخال العلوم الحديثة في الأزهر...، ولذلك اختار في روايته شيخاً أزهرياً وسماه "علم الدين" ... وعلي مبارك يقدّم لنا بهذه الصورة المقارنة بين العادات الشرقيّة والأوروبيّة.

المراجع:

1-بواكير الرواية، محمد سيد البحراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007م.
2-تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، الطبعة الثانية، المطبعة البوليسية، لبنان، 1953.
3-تطور الرواية العربية الحديثة، عبد المحسن طه بدر، الطبعة الثالثة، دار المعارف، 1976م.